

الآتجاهات الحديثة  
في الإسلام

للأستاذ

محمد حجة الأثرى

م  
الوجه

المطبعة السلفية - ومكتبتها

## كَلِمَةٌ

بَيْنَ يَدَيِ هَذَا السَّفَرِ الْفَنِيِّسِ

الاتجاه الجماعي في الإسلام، من صميم الإسلام، بل هو الإسلام  
إن الإسلام - في ذاته - دينُ جماعة، يقوم على تحرّى السداد والمقاربة في  
الحياة الدنيا، وحياة الخلود

وجماعات الإسلام قبلة واحدة يتمرنون على تحرّى السداد بتحرّياتهم السداد  
في الاتجاه إليها، آناء الليل وأطراف النهار

والمجتمع الإسلامي رُسمت لاتجاهاته سُننٌ عُيِّنَتْ، ودُوِّنَتْ، وجُرِّبَ العمل  
بها مائتي سنة، فكان نجاح التجربة معجزةً من معجزات التاريخ الإنساني .  
وهذه السنن - في جملتها وتفصيلها - تأخذ بأيدي أفراد المسلمين وجماعاتهم ودولتهم  
إلى البدء - في كل شيء - من أول الخط المستقيم، وتحرّى الوصول إلى آخره  
على الجادة، وهم يدعون الله في كل يوم صرّات وصرّات : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ  
المستقيم ﴾

كانوا - أفراداً وجماعات، رجالاً ونساء - يطلبون من ربهم، في داخل  
صلاتهم وخارجها - هذه المداية إلى الصراط المستقيم، بقلوبهم قبل ألسنتهم،  
وكانوا على بينة مما يطلبون، ويتصورون معاني هذه الألفاظ الثلاثة كلما تحرّكت  
بها ألسنتهم، واستمرّ ذلك في البطون الثلاثة الأولى للإسلام، وهي المدة التي  
انتشرت فيها دعوة « الصراط المستقيم » بسرعة الصوت من مآذن التوحيد في  
قارّات الأرض التي كانت معروفة لذلك العهد، فسعدت شعوب الأرض بالانضمام  
إلى هذه الدعوة وأهلها من العرب الأولين، واعتزّ المشارقة والمغاربة بالولاء لهم،  
والإتقاء لقبائلهم، فكان ذلك من أولئك وهؤلاء ولاء على الحق، وتعاوناً مثالياً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في سبيل الخير ، بل اندماجاً في العروبة وسنمها وتغنيها بالعربية وبيانها ، لا يعرف التاريخ نظيراً له في أمة أخرى

كانوا هم الناس ، يوم كانوا قائمين بذلك ، ومتعاونين عليه ، ومقتنعين بأن الطريق المستقيم أقرب الطرق ، وأقصرها وأيسرها ، الوصول إلى الهدف العام ، وتحقيق المصالح الجزئية

ولما اختلطوا بالأُمم ، واختلطت بهم الأُمم ، فأخذت عنهم وأخذوا عنها ، اندس فيهم أبالسة فشلوا في تحطيم هذه الدعوة بالقوة ، فزعوا أنهم انضموا إليها ، وأنهم صاروا من حُماها ، فاخترعوا لأهلها شيئاً ، ومذاهب مشعبة في « بنيات الطريق » . وأقنعوا من أقنعه منهم بأن « التخريم » فيها أقرب - في الوصول إلى الأهداف - من التزام الصراط المستقيم . وترتب على ذلك أن صار كثيرون من المسلمين يقولون لربهم في صلاتهم « اهدنا الصراط المستقيم » وهم غير مقتنعين في قلوبهم بأن « الصراط المستقيم » أسرع من « بنيات الطريق » في إبلاغهم أهدافهم وتحقيق مصالحهم . ويومئذ تفرق المسلمون شيئاً في الأصول قبل الفروع ، وتوغلوا في الطرق الصوفية وغير الصوفية ، وصار لمجموعهم لون آخر غير اللون الذي كان للجماعة الأولى التي فتحت الله لها الفتوح ، وطوَّع لرسالتها قلوب الأُمم ، ولغتها ألسنتهم ، من زمن الصحابة إلى زمن التابعين والتابعين لهم بإحسان

هنالك استعجم الإسلام - كما يقول الشيخ محمد عبده - وتحوَّل أهله من « أمة صدق » لأن للصدق من لوازم الصراط المستقيم ، إلى أمة ترى فلاح جماعاتها ، وبلوغ مقاصد أفرادها ، بالتفنن في الأساليب المتنوية ، والدعوة للطرق المنتشعة ، والتمسك بالشيء المتضاربة

إن للمسلمين قصة طويلة في حيرتهم بين « الصراط المستقيم » و « بنيات الطريق » تتفاوت عواقبها وعقوباتها سعة وضيقاً ، استمرت أكثر من ألف سنة

ودراسة هذه القصة ، ومراقبة تطوُّرها على أيدي الأبالسة الذين حوَّلوا المسلمين عن الطريق الأعظم إلى بنيات الطريق ، تقتضي كتابة تاريخ الإسلام وأهله من جديد ، ولا يقدر على ذلك إلا رجال أخلصوا النية ، وتحضوا الحب لدعوة الإسلام الأولى كما هي ، وعاشوا مع عصور الإسلام كأنهم كانوا من شهودها في جميع بيئاتها . وعلمناؤنا اليوم بين مشغول بالعلوم الإسلامية في نطاق ضيق ، ولم يتسع وقته لتنوير بصيرته بما يتقلب على الأُمم من أسباب النهوض والاختطاط ، وما يؤثر عليها من الدعايات والدسائس التي تغير مجرى تاريخها . وبين متعلم بالمناهج الأجنبية التي أبعدته عن فهم ماضي أمته وأصل دعوتها ، ودقائق سننها التي كوفئت عليها من الله بالخلافة على الأرض ، ثم ما طرأ على ذلك من أسباب الضعف المدسوسة أو غير المدسوسة . فلم تحظ هذه الدراسة بالألمى الحصيف من هؤلاء أو أولئك . وإن بين هذين الصنفين صنفًا ثالثًا ارتفع عن مستوى الصنف الأول ، وآتاه الله بصيرة ومعرفة امتاز بهما على الصنف الثاني . وهؤلاء مع أنهم قلة قليلة صرفتهم مشاغل الحياة عن الاضطلاع بهذا الواجب

ومن خيرة من أعرفهم في العالم الإسلامي اليوم من هذا الصنف الثالث ، أخى العلامة الجليل السيد محمد بهجة الأثرى ، فانه مجموعة رجال في رجل ، أنشأ الله تحت جناح علامة العراق ، وأحد أفضاذا المسلمين من الطبقة التي نشأنا في ظلها ، وهو السيد محمود شكرى الألوسى ، علم الأعلام الذين توارثوا حمل أمانات الملة بعلمهم ودينهم وأخلاقهم ، فكان السيد الأثرى أحسن أبناء السيد الألوسى ، ثم كان له من مواهبه الممتازة ما مكن له في علوم الشريعة ، وعلوم البيان ، والبصيرة في سنن الاجتماع والعمران ، ومعرفة أقدار الأعلام من السلف فيما شادوا وبنوا ، ومراقبة أعداء الدعوة الإسلامية فيما دسوا من ورائهم وقوضوا . وإنى أشكر الفرصة التي سبحت له في استعراض هذا الموضوع بلحظة خاطفة هي وإن كانت في نفسها شيئاً عظيماً ، غير أن إشرافها على أحداث بضعة عشر قرناً في البناء والهدم

وأصحابها ، تسكاد تكون مقدمة لدراسة قد تخرج في عشرات المجلدات . والسيد الأثرى من مشاغل الحياة - وأقرها قيامه على أوقاف المسلمين في العراق قيام إحياء وتجديد - ما لا نطمع معه في الوقت الحاضر بتسكينه هذا الجهد الأعظم ، لكنني أرجو أن يحاول التوسع فيما كتبه في هذه الرسالة النفيسة ، فيخرج لنا بعدها دراسة أوسع ، تفتح الطريق له بعد ذلك ، أو لمن يوفقه الله للخير من شبابنا ، حتى يكون بين أيدي الجيل الآتي صورة أصيلة صحيحة لصراط الإسلام المستقيم ، ولبنات الطريق التي تاه فيها المسلمون ، ليعودوا منها إلى سبيلهم الأول ، يتوجهين باستقامة وسداد إلى الهدف الأعظم ، فتعود لهم خلافة الله على الأرض

دار الفتح  
جزيرة الروضة ، تجاه القساط  
بمصر

محب الدين محمد الخطيب

## الاتجاهات الحديثة في الاسلام

محاضرة دُعِيَ الأستاذ الأثرى إلى إلقائها  
في صيف سنة ١٣٧٠ ( ١٩٥١ )

في مؤتمر الدراسات العربية ، بالجامعة الأمريكية - في بيروت

## الاتجاهات الحديثة في الإسلام

يواجه الإسلام في هذا العصر مجموعتين هائلتين من المشكلات العويصة  
المقدمة : المشكلات القديمة التي تراكت عليه في عصوره الطوال ، وعملت على  
تغيير صورته وتحويل وجهته عن مجاريها العالمية إلى أن تأخر أهله وعاد هو غريباً  
بينهم غربته بين غيرهم ، والمشكلات الجديدة التي أحدثها له ، ولا يزال يحدثها  
له ، هذا السلطان السيامي لدول أوربة في دياره ومحاولاته الكثيرة المتنوعة في  
مكائنه لإفساد بَقَظَتِهِ ، وعزله وإقصائه عن واقع الحياة ، مخافة سلطانه واستعلائه

والبحث في وجهاته في هذا العصر يستلزم ، قبل تناوله ، رسم صورتين  
موجزتين لهاتين المجموعتين من مشكلاته ، ترتيباً للتأنيج على المقدمات وربطاً  
للمسببات بالأسباب . وبدون الاستئارة بما ينبغي أن نضمهما من حقائق ، لا نستطيع  
أن نقدر خطورة التطورات المختلفة التي ظهرت في وجهات الإسلام اليوم

وإني لمضطر أن أعترف ، قبل الخوض في هذا الخضم للتلاطم عُبَابُهُ ، بأنني  
قد ظلمت نفسي أبشع الظلم حين أطلأنت إلى الرضا بتناول هذا المبحث العظيم في  
محاضرة ، في ساعة عابرة من الزمان ، وهو يلف في حناياه أحداث أزمئة طوال  
حافلة من قضايا التاريخ وغرائب الأطوار وألوان المنازع والغايات بما لن يستطيع  
الإحاطة بها واستخلاص وجهاتها إلا معهد منظم يتوفر على دراستها

ولكن نبل الغاية التي دعيت إلى المشاركة فيها ، وتقدير الثقة التي أولانها  
علماء الجامعة الأجلاء القائمون بتدبير شؤون هذا المؤتمر الكريم ، قد رجعا عندي  
على هضم نفسي وإيثار إقحامها هذا المأزق

وزاد في رجحانها على ذلك في ميزان التفضيل والإيثار ، هذه الصورة الجلية  
التي آرتسمت في خيالي من جمال النفوس ورجاحة العقول التي سأواجهها هنا ، ثم

ما قام في نفسى بعد ذلك : من الطمع في كرم شمائل السامعين وإدراكهم العميق ، وما يوحيه هذا وذاك اليهم من التقدير لطبيعة البحث وزمنه ، وما تقتضيه ضرورة الموقف من عذر المحاضر أو قبول عذره

\* \* \*

ليس الاسلام مشكلات في نفسه عند من يتدارسونه ، ويتعمقون عقيدته وتشريعه ونظامه في قرآنه والصحيح الثابت من سنن رسوله ، وفي ترجمتهما إلى أعمال وأخلاق ومطامح عليهما كما ترى في سير خلفائه وأبطاله وعلمائه ومفكريه وساسته وقادته في عهوده الأولى خاصة

وإنما مشكلاته هي من خارج نفسه في القديم وفي الحديث

فأما مشكلاته من خارج نفسه في القديم ، فقد نشأت له من سلسلة الآفات والكوارث والحملات الدنيئة التي تعرض لها في تاريخه المديد ، وكان الباعث عليها عوامل شتى من العصبية والأحقاد وقفت له بالمرصاد ونزلت إلى ميدانه تصارعه وتغالبه ، لتقضي عليه ، أو لتحد من نشاطه السياسي ونفوذه العالمي ، وتقف بموجاته حيث تستطيع أن تقف بها من شرق الأرض وغربها ، في سلسلة طويلة من الصراع بينها وبينه تركت آثاراً سيئة في حياة المسلمين العامة أدت نتائجها الخطيرة إلى انتقال السلطان من أيديهم إلى أيدي خصومهم وتغلب هؤلاء على أوطانهم كما هو معروف

وفي الحق أن ما ترتب على هذا الصراع السافر من نتائج سياسية وعقلية وروحية واجتماعية ، بعد عصور طويلة من نشأة الإسلام ، ما كان ليكون بجملته وتفصيله على هذا النحو لو سلم الإسلام من الآفات التي تناولته ونفذت اليه بوسائله الكثيرة كما تنفذ الأمراض الخبيثة إلى الجسم الحى لتبيده

نفذت هذه الآفات إلى الإسلام بوسيلتين مفترقتين في الظاهر متحالفتين في

الباطن ، وهما وسيلة السياسة ووسيلة الدين ، وطالما ظهرت الحركات السياسية متبرقة ببراقع الدين أو المذهب ، لتخفي وجهها ووجهتها وتنفذ إلى ما تشاء من مآربها تحت ستار اسمه وانتحال عقيدته

وبدأت الحركات الأولى بمحاولة قلب الدولة الإسلامية ، وهي فتية غضة لم يستقر بعد عودها ، ولم تنشب جذورها ، فشرعت بالائتمار بالخلفاء الراشدين ، وظهر ذلك أول ما ظهر في المؤامرة اليهودية المجوسية التي نفذها « بابا شجاع » أي أبو لؤلؤة الفارسي ، فقتل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه قائماً بصلى في الحراب فلما أخفقت في تحقيق غايتها بهذه الوسيلة ، عمدت إلى إثارة الفتن الداخلية وتمزيق الوحدة الإسلامية بإنشاء الأحزاب السرية والعنانية ، والتعزب للأمر الكبيرة في الإسلام ، ونشر فكرة الحق الإلهي في الدولة ، وإبطال الشورى . فنشب الصراع على الخلافة ، واستتبع ذلك انتقال الحكم من يد إلى يد بعوامل العصبية القبلية والمذهبية . وبذلك دخل أول الوهن على الوحدة الإسلامية ، وما زال يزداد والوحدة تتجزأ حتى أقسمت المملكة الإسلامية بين ملوك الطوائف ، وظهرت حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية في أحشاء البلاد ، وهم يمشون في الإسلام وفي الدولة ويهزؤون بالمملكة هزاً بالغيلة والفتك بالخلفاء والملوك والعلماء ، إلى أن اكتسح المغول الشرق الإسلامي

وكان أخطر ما قامت به هذه الحركات في توجيهاتها الخفية ، هو العمل على تحويل توجهات الإسلام الروحية وتشريعاته ونزعاته عن مجاريها العالية تحويلاً تنقعي به إلى إضعافه وإماتة حيويته ، ليكن لها من إحياء عصبية القديمة ، وإعادة سلطاتها المذهب الذي تحن إليه ، وشفاء صدرها من الإسلام

فعمدت - أول ما عمدت - إلى الأصل الذي عليه يقوم بناء الإسلام ، وبه يتحقق وجوده ، ومنه تنفرع وجهاته في العقيدة والشريعة والدولة والحياة . وهو

التوحيد الخالص . فإرادته أن يكون نيركا خالصاً من نوع شركها القديم ، ووثنية  
حقيرة من جنس وثنياتها الأولى

وتفرع من سعيها في إفساد هذا الأصل الأعظم في الإسلام ، ونجاحها فيه  
نجاحاً كبيراً على مر الأيام ، سعيها في تشويه حقائق معظم الأمور التي تترتب  
عليه ، وتغيير صورها بتحريف وجهاتها والابتعاد بمقاصدها ونزعها عن مفاهيمها  
الحقيقية

وكان من وسائلها الكبرى إلى ذلك ، الوضع ، وتمثل التأويل لنصوص  
الليكتاب والسنة ، وجعل ظواهر وبواطن القرآن وأحكامه ، وإضافة الهدع  
والحداث إلى الدين والعبادات ، وإشباع الأذهان بالخرافات والقصص والأساطير  
الاسرائيلية ، والترويج لضروب من الآراء الباطلة والنوازع الضارة ، ولا سيما  
نوازع التفرق التي لم يُبعث الإسلام إلا لاستئصال منشأها ، وإنقاذ العالم الإنساني  
من شرورها وآثامها ، بجعل الدين كله لله وحده لا شريك له في وحدانيته ولا تد  
له ولا منازع في سلطانه ، ولا سبيل لأحد من خلقه على خلقه سواه

وما زالت تدأب في ذلك ونحوه حتى استطاعت أن تُنمّل الإسلام ، على  
تراخي الأيام ، أسماً على غير مسماه ، وحملت جماهير المسلمين على أن يألفوا رويداً  
رويداً صورة له ينسكروا لها الإسلام الصحيح أشد التنسك ، ومفاهيم له فاسدة  
تخالفها ظواهر أصوله ونصوصه أشد المخالفة ، حتى عاد كثير مما كان معروفاً عند  
أوائلهم منسكراً لديهم ، وكثير مما كان منسكراً عند أولئك معروفاً عند هؤلاء .

ولا غرابة في أن ينتهي الأمر بالإسلام إلى هذه الغاية ، بعد أن نلم نتائج حركات  
هؤلاء في الداخل من جهة ، وآثار صراع الإسلام وراء حدود بلاده وفي قلبها  
من جهة أخرى ، في إضعاف الأمة الإسلامية ، وفشو الآفات الاجتماعية بين المسلمين

ومن أخطر هذه النتائج :

انتقال السلطان ، بذهاب الأجيال الأولى من الصرحاء الخمس للمشبهين  
بروح الرسالة ومطامحها العليا ، إلى أيدي الموالى والهجناء من رواسب الأمم الذين  
طوام الإسلام في عبايه ، وأتبعوه أتعجلاً ظاهرياً ، وبقيت تعمل في صدورهم  
الإحنة عليه والبغضاء له

ومنها : فشو الجهل ، والأمية ، والاستهجام

ومنها : انتهاء أزمة النوجيه الروحي والفكري ، بتأثير هذين العاملين ،  
إلى المتصوفة وأشباه الفقهاء . وقد نشأ هؤلاء في ظلال هذا الفساد ، وورثوا تلك  
الصورة المشوهة للإسلام كما صاغها أعداؤه ، ولم يكن لهم من الذكاء وحرية  
الرأى وسعة العلم ما يعينهم على التحقيق والتحجيز ، فآقتنعوا بصدق الصورة التي  
نقلت لهم عن الإسلام ، وألقوها منذ نعومة أظفارهم ، وشبوا عليها وشابوا ،  
وزادوها فساداً بجمودهم وفساد تخيلاتهم وابتعادهم عن مصادر الإسلام الأولى  
ورجوعهم في كسب معارفهم الدينية إلى كتب من كتب ذلك الرعيل ، وهي  
كتب مذهبية بجملة أملاها التعصب الخالص ، فلم تسكن في الدين بذات روح ،  
ولا في الدنيا بذات طموح ، وشغل الناس بالجدل المذهبي ومقالات أهل النحل  
والملل ، ومذاهب الروح وفلسفة الإشراق ، ومسائل الاتحاد والحلول ووحد  
الوجود ، فحجب ذلك عنهم دينهم ، ولم ينفعهم في دنياهم شيئاً . وأثرت الطرق  
الصوفية في الأفكار تأثيراً سيئاً ، وكان من هذه الطرق ما يصطنع نظام الدرجات  
للمساعدة في المذاهب السرية ، ومنها ما يصطنع الدعوة إلى الزهد والانتقطاع بزعمهم  
إلى الله ، ويرغب الجاهيل في الفقر والمسكنة ، ويستكثر ، بمعاونة الطبقات الحاكمة ،  
من الرُبط والتسكيا والزوايا ، فيقصدها المتبطلون من كل صوب ، ليستقوا على  
الفتات من صدقات الحاكمين الأغنياء ، ثم ليبدأوا بالدعاء لهم أن يطيل أعمارهم  
بأنيط الأرض ورافع السماء !

وقد كان سلطان طوائف المتصوفين ، في العمود الأخيرة خاصة ، أقوى سلطان على عقول الجماهير ، وكان مسلكهم الوضع يجري على هوى الطبقات الحاكمة في حجب الأبصار عن ترفهم وباطلهم وتعتهم ، فوطد المظالم وللآستبداد ، ووقف في وجه الإصلاح والمصلحين ، كما حلل طاقة الأمة ، وقعد بقواها عن السعى ، وبعقولها عن الابتكار ، وبثرائها عن الاستثمار . ولما نود أن نتحدث عن آثارها في تشويه الأخلاق ، وإفساد المعاملات ، وتزوير الدين ، وإحالة العبادة والتقوى فيه إلى رقص ومسكأ وتصدية ورياء ، وظاهر مزورة ، خشية أن لا ننهي منها ، ونحن نريد الاقتضاب

وبهذا الذي ذكرنا وغيره مما لم نذكر ، بلغ المسلمون غاية التأخر في الدين والدنيا ، وعرضوا أنفسهم للعقوبة التي يكتبها الله على المنحرفين عن هدايته ، إذ أقطع سندهم بالروح الواعي الذي كان يثير أسلافهم إلى العظام ، كما انقطع سندهم بالعلوم العملية التي تسخر للأمة قوى الطبيعة ، وتسخرها لمصلحتها وبقائها وخلودها ، فكان أقطع سندهم بهذين الأمرين وانصرافهم إلى ما وصفناه من الشؤون مدعاة ضعفهم المعنوي والمادى ، وكان ضعفهم المعنوي والمادى علة سقوطهم

على أننا ، وقد انتهينا في رسم هذه الصورة للحياة الإسلامية المتأخرة إلى هذه الغاية ، نرى من الحق علينا ، بل من مستلزمات بحثنا في وجهات الإسلام الحديثة ، أن نكشف عن حقيقتين تاريخيتين لا خفاء بهما على من يتقصو التاريخ وينفضون أحداثه ، نعتقد أنهما أمسكتا العالم الإسلامى أن ينهار ، والإسلام أن يزول ، من أية صدمة من الصدمات التي قرعته . فإن لم يكن من الانتفاضات الداخلية ومفاسدها ، وهي من أعظم ما مئى به نظام من أنظمة العالم من أعدائه وجهلة أهله معاً ، فمن عادة المغول التي أبادت الحرث والنسل وأحرقت اليايس والأخضر ؛ وإن لم يكن لا من هذه ولا من تلك ، فمن الغارات الصليبية التي آثالت بها جيوش أوربة كلها بقضها وقضيضها عليه موجة في إثر موجة مدة قرنين

كاملين ، وإن لم يكن لا من تيفك ولا من هذه ، فمن السكارنة الأوربية التي بدأت طلائعها قبل قرنين إلى أن أطبقت عليه في الحرب العالمية الأولى وما تزال ممسكة بخناقها

وهاتان الحقيقتان إنما ترجعان - في واقع الأمر - إلى بقاء القرآن نفسه بنجوة من كل هذه التيارات سلباً لم يمسه سوء ، وعمله في نفوس المسلمين بما تثيره تلاوته من شعور سليم يحملهم على تصحيح المواقف التي كانت تدفعهم إليها الدسائس والحركات الهدامة دفماً ، على اختلاف حظوظهم من تلاوته وفهمهم لما يتلون

ونحرص على ذكرها لما يترتب عليها من أثر في تبیان وجهات الإسلام الحديثة والأسلوب الذي تسير عليه

أما الحقيقة الأولى ، فتتجلى في المظهر العقلي العام للمجتمع الإسلامى في تلك العصور على ما أصابه من فساد . وقد كان دوام هذا المظهر سلباً إلى حد ما امتداداً لورثة التوجيه القرآنى للمجتمع الأول وللسمحة التي أنصف بها وأثرت أثرها في نفسية المسلمين وعقليتهم ، فكانت فيهم غريزة أو كالغريزة الموروثة إذا تعمدوا التوجيه الفاسد بمواقفه كان فيها القدرة على الاعتصام بأصالة طبيعتها

ولعل وجه هذا المظهر يبدو واضحاً بالمقابلة بينه وبين المظهر العقلي العام لأوربة في عهد الرينسانس ، عهد الانبعاث والحياة ، فقد تبين لنا هذه المقابلة أن نعد ما بلغه المجتمع الإسلامى من الجود العقلي في أشد عصور تأخره طوراً من أطوار الإصلاح الذي بدأته أوربة يومئذ . فلم يشهد هذا المجتمع ما شهدته أوربة : من تجبر العقل ، وشلل الفكر ، وجذب الروح ، وقسوة الضمير في مصادرة الحريات ، والضرارة في إباداة الكتب ومحاربة العلم والعلماء ، وإنزال أقسى العقوبات وأقصاها بالمفكرين من أجل أفكار تبدو لنا عادية ، كانوا يعلنونها في سبيل الإصلاح والتجديد : ويذكر التاريخ أن عدد الذين عوقبوا في أوربة بلغ ثلاثمائة ألفاً



أحرق منهم آثتان وثلاثون ألفاً أحياء، كان منهم العالم الطبيعي «برونو»  
Bruno، وقد نُقِمَتْ منه آراء، أشدها قوله بتمدد العوالم، لحكم عليه بالقتل،  
وأحرق ميتاً. وعوقب العالم الطبيعي الشهير «غاليليو» بالقتل، لأنه اعتقد  
بدوران الأرض حول الشمس. وحُبس «دى رومنس» في روما حتى مات،  
ثم حوكت جثته وكتبه، لحكم عليها بالحرق، وألقيت في النار، لأنه قال إن  
«قوس قزح» ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد، بل هي  
من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء. وأصاب «جيوفت» في جنيف،  
و«فايتي» في تولوز ما أصاب هؤلاء، وحرقاً شديداً على النار، لآراء لا تستوجب  
حتى التعزير، إن لم نقل تستوجب الاحترام والتقدير.

ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر  
والعلم الذي عرفته أوربة. والأحوال النادرة التي عوقب فيها رجال على آرائهم  
تعد بشادة جداً في المجتمع الإسلامي، وكانت إلى ذلك تلبس بها بواعث سياسية  
خطيرة تعتمد قلب الدولة والقضاء عليها، كالذي كان من قتل «الحسين بن منصور  
الحلاج»، وهو رجل مجوس الأصل من أهل بيضاء فارس، اشتغل بالخوارق  
والحيل، وأدعى العلم بالأمرار، ثم تنهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية، واستغوى  
غلطان قصر «المقتدر بالله العباسي» لينفذ بهم إلى تحقيق غايته، فأدى ذلك إلى  
قتله. وذكر إمام الحرمين في كتابه «الشامل» أنه كان بين «الحلاج» وبين  
«الجنابي» رئيس القرامطة اتفاق سرّي على قلب الدولة، وأن ذلك هو السبب  
الحقيقي في قتل «الحلاج». وهذا، كما يرى، باب آخر يتعلق بحماية الأمن

وحفظ النظام وسلامة الدولة، وهو غير ما نحن فيه

. ونسكتفي بهذه الأمثلة اليسيرة من ذلك، ونحسبها كافية في الموازنة الفاصلة  
لإظهار صورة تأخر المسلمين العقلي على حقيقتها حين نضمها إلى جانب هذه الصورة

من تأخر الأوربيين على سبيل القياس والتنميط بما يجارى الواقع ولا يجانف مذاهب  
المصدق

وأما الحقيقة الأخرى، فهي اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام،  
في مختلف عصوره. فن ملوك من طراز الفاتحين الأوائل في دينهم وتقواهم وفي  
سيرتهم وأخلاقهم، يظهرون في الفترات، ويسعون في إعادة شباب الإسلام  
 وإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة. إلى علماء مصلحين رافعين  
لمشاعل التجديد، ثائرين على البدع والمحدثات التي غيرت وجه الإسلام ووجهته،  
ينعون على المسلمين انحرافهم عن سنن القرآن، ويدعونهم إلى الرجوع إلى الإسلام  
الصحيح في صورته الحقيقية قبل أن تعدو عليه الشعوبية ومسلمة اليهود وأضرابهم  
بالإفساد والتشويه.

وبذلك كانت مشاعل الإصلاح في المجتمع الإسلامي، متسلسلة يتقد بعضها من  
بعض. وكانت أضواؤها تختلف سطوعاً وخفوتاً على قدر طاقة مشعلها، ومرجعها  
جميعاً في أخذ أقباسها إلى أصل الدين، وهو القرآن وكونه حياً محفوظاً من  
التحريف والتبديل، عالياً منازةً، متألقاً أشعته. وما زال الكتاب والسنة  
الصحيحة يبعثان في نفوس الأذكياء المتقنين الثورة على الوثنية والبدع والمحدثات،  
والثورة على ترف المترفين وآسبداد الملوك، والثورة على الجمود والتقليد ومجانفة  
الفطرة وسنن الطبيعة التي لا تبديل لخلقها كما سنرى أمثلته في التجديد الحديث  
ولقد كان لا استمرار هاتين الحقيقتين في العالم الإسلامي أعظم الأثر في بقائه  
متناسكا وفي حفظ الإسلام من الزوال

تلك هي الصورة المصغرة للعالم الإسلامي حين أسقيت الغرب، وطلق يبعث  
عن مجالات غنية، ليسط عليها سلطانها ونفوذها، ويفتدي حضارته المادية بمعادنها  
وخاماتها وبترونها، ويفتح فيها لآقتصادياته وتجارته أسواقاً تستهلك منتجاتها  
وتنمي ثروتها

وأما مشكلات الإسلام الحديثة ، فهي ناشئة من الاحتلال الأوربي ، وهي تسكن وراء طبيعة الاحتلال ووسائله في تثبيت أقدامه في دياره ، ومنها تنطلق أسبابها وبواعثها ، ثم تأخذ صبغاتها المختلفة ، وتتكاثر وتعمق لتستحيل إلى أمراض متوطنة تنهك المجتمع وتحل طاقته وتبطل مقاومته

وقد دم الغرب بلاد الإسلام ، وحمل معه إليها مظاهر حضارته ومذاهبه في الدين والآداب ، ومنازعه في السياسة والاقتصاد ، وأذواقه في الفنون والآداب ونوازع الحياة ، فأخذ الناس من كل ذلك بحظوظ تختلف باختلاف حظوظهم من الاتصال بها أو القرب منها والبعد عنها ، ففتن بها أناس يسرفون في حسن الظن والتقليد ، وعدوها خيراً كلها . فاندفعوا يقتبسون من ظواهرها ما يستطيعون اقتباسه ، ومن منازعها ما يسهل أخذه ، لا يعدونه ، أو قلها يعدونه إلى ما وراء ذلك من استبطان الدخائل وتعمق الأصول والغايات . وأنسكروا أناس ، فازوروا عنها ، وعدوها شراً كلها ، فلم يأخذوا منها شيئاً ، وحاربوا منازعها ، لأنهم يزدرونها ويعفون عنها مظاهراً . ووقف آخرون موقفاً وسطاً ، لا يندفعون مع أولئك في التقليد ، ولا يشايعون هؤلاء على الآزورار ، وإنما يلاحظون الظواهر ويتعمقون البواطن ويرصدون الوجهات والغايات ، ثم يعرضون ذلك كله على العقل والمثل القومية والدينية فيأخذون منه أشياء ويرفضون أشياء ، ثم يلائمون بين ما يأخذون وبين مزاج الفكر الإسلامي وأصوله ، ويضعفون عليه من ذلك روحاً جديداً يحمله مدكاً خالصاً للحياة الإسلامية . وبهذا زاد هؤلاء في ثروة الفكر من ناحية ، وأضعفوا من تقليد الفريق الأول ، كما خففوا من حدة الفريق الآخر من ناحية ثانية ، بل صنعوا أكبر من ذلك فأبطلوا مع الأيام كثيراً أو قليلاً من آثار نوازع الاحتلال في استخدام وسائله المادية والمعنوية في تغليب هذه الحضارة ومراقبتها على الحضارة العربية الإسلامية للاستعلاء بها على الإسلام وحضارته

ولسكن الاحتلال لا يقف ولا يصكف عن المضى في سبيله إلى غايته ،

والحضارة عنده ليست غير وسيلة من وسائل تثبيت أقدامه في الديار المحتلة إلى آخر الزمان !

وقد كان هدفه - ولا يزال - إذابة شخصية المحتلين في هذه الحضارة ، وتغيير ما بأنفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم والتعلق بلغتهم وبتاريخهم والإكبار لحضارتهم تغييراً يسلمهم إلى الخضوع لإرادته ، والاستسلام لسلطانه ، والفناء في مذاهبه ، فهو يعلم من سلطان كل أولئك على نفوسهم الشيء الكثير ، ويعلم أنه لن يستطيع أن يؤدي عمله ، وينتهى إلى غايته ، وينجح نجاحاً تاماً ، إلا إذا مهد له السبيل بتوجيهات خاصة ومنازع جديدة تقطع صلة المسلمين بدينهم وتضعف نوازعهم إلى الاستقلال عنه والبرء عليه

فسعى إلى ذلك - أول ما سعى - بالتبشير ، وكان يظنه سلاحاً نافذاً ، فلم يثمر له أية ثمرة إيجابية ، وذهبت مساعيه في نشره أدراج الرياح ، ووجد أن المسلمين غير محتاجين إلى من يهديهم إلى « عيسى » عليه السلام ، فهم يؤمنون « بعيسى » و « مريم » وجميع التعاليم المعقولة في المسيحية ، ويبرئونه وأمه من كل شيء كما يبرئه المسيحيون

وحينئذ فكر في نشر التعطيل بين المسلمين ليسكون الوسيلة إلى قطع صلتهم بالإسلام ، فأسس لذلك مدارس خاصة ، كالمدرسة العظمى التي أسست في الهند ، لنشر تعاليمه ، وبث مبادئها في نفوس النشء المسلم . فضل كثير منهم ، وأشرعوا روح الإلحاد في قلوبهم ، ولا سيما أولاد الأمراء الذين كانت معظم طلاب تلك المدرسة منهم . وهال ذلك السيد « جمال الدين الأفغاني » فأنف رسالته المشهورة « الرد على الدهريين » ، وانتشرت الرسالة في طول البلاد وعرضها ، فأخرج كثير من أمرائها وأولادهم من تلك المدرسة ، ورجع آخرون عما كان خاضعاً لنفوسهم من التعطيل والإلحاد

وعلى السيد « الأفغانى » مقصد المحتلين من ذلك بأنهم رأوه أقرب وسيلة إلى أغراضهم ، وتأيد سلطانهم فى الهند ، وقال : « إنهم وجدوا أن الديانة الإسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان فى أوطانهم ، ولا حظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التى لا يمكن أنسلاخه عنها ، ولا انتزاعها من فطرة أبنائه ، فكروا فى أمر يضمن أثر هذه العقيدة فى نفوسهم ، فرأوا أن أقرب وسيلة إلى نيل مرادهم هو نشر التمهيد بين المسلمين »

ويشير مستر « جب » إلى شبكة المدارس الأجنبية التى انتشرت ، من منتصف القرن التاسع عشر ، فى معظم البلاد الإسلامية ، وتوات الدول الأوربية تأسيسها فيها ؛ وإلى أثرها فى صياغة أخلاق التلاميذ وتكوين ذوقهم وإعدادهم للتأثر بالمؤثرات الأوربية ، فيقول فى بعض كلامه :

« فى أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإنشاء التعليم العلماني بإشراف الإنجليز فى مصر والهند . ولعل هناك نصيباً من الحق فى التهمة التى تُرمى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التى وليت ذلك فى البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة . ولكن الذى فعلته بلا ريب أنها ربت فى التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة إلى حد ما فى أوطانهم الأصلية . وبإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ ، أدخلت فى بناء المجتمع الإسلامى أداة هادمة ، وقطعت بعض الأواصر التى كانت تحفظ تماسكه »

وفى هذه الإشارات الموجزة إلى نتائج وجهة الاحتلال وأثر مساعيه فى تغيير العقائد والأنظمة الاجتماعية ، تظهر الأصول التى تنشأ منها كليات مشكلات الإسلام فى هذا العصر ، ونحن نرى جزئياتها الكثيرة فى النواحي النظرية

والعملية نحو نقض صرح الثقافة الإسلامية القالد من أساسه وتحطيمه تحطيماً شاملاً ومن أجل هذا نشأ الاستشراق فى بلاد الغرب ، وأخذ جماعة من الغربيين فى كل دولة ذات مطامع استعمارية يكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسة وتأليفاً ونشراً ، وتلك هى الغاية التى يعملون لها ، ويثيرون من أجلها المشكلات بوجه الإسلام

\*\*\*

فهاتان هما للصورتان اللوجزتان ، لم أبلغ منهما كل ما تريد ، ولكنهما على كل حال تلقيان شيئاً من الضوء على الوجوه الحديثة للإسلام فى هذا العصر وأبدأ بالموضوع نفسه ، فأقول :

لما باغت أوربة العالم الإسلامى ، وبدأت تغزوه من عن يمينه وشماله ، وتغلغل جيوشها فى قلبه ، منذ القرن الثامن عشر - كان على الإسلام أن يكلم شعته ، ويحارب فى ميدانين ، فى الميدان الداخلى لتحرير من أغلال العصور الوسطى ، وفى الميدان الخارجى لرد عادية المعتدين الغزاة

فصاغت الأقدار فى وقت متقارب جداً وجهته إلى ذلك فى مظهرين هما الإسلام كله ، ولا يكون الإسلام إسلاماً إلا بهما مجتمعين ، مظهر مادى حربى ، ومظهر دينى روحى

أما المظهر المادى الحربى : فقد كشفت عنه الإمبراطورية العثمانية والدولة العلوية بمصر ، حين سعى بعض السلاطين العثمانيين وساسة الترك إلى اقتباس وسائل القوة والتنظيم الحربى والإدارى من المظاهر المدنية لحياة أوربة ، وسعى إليه كذلك « محمد على » فى « مصر » من الناحية الحربية والاقتصادية والعلمية والعمرانية على حذو مخططة من التوفيق . وقد أرادوا جميعاً ، بعد أن لمسوا تفوق الغرب بوسائله الحديثة ، أن يتهيبوا للدفاع عن الوطن الإسلامى بمثل الوسائل التى يصطنعها . ولكن هذه

التي تَقَطَّعتْ جاءت ، لسوء الحظ ، متأخرة جداً ، إذ كانت أوربة قد استكملت وسائل نهضتها خلال ستة قرون متقدمة توفرت فيها على الإصلاح والتجديد والابتعاث ، وأخذت تعدو إلى غايتها عدواً ، بل تطير إليها طيراناً ، وتممخص صناعاتها الحربية كل يوم عن سلاح جديد تبادى به أعداءها قبل أن يتمكنوا من الاستعداد للقاءها

وليس المهم في بحثنا أن نشير إلى غناء ذلك أو عدم غنائه يومئذ ، وإنما المهم ما أريد أن أشير إليه من دلالاته العملية على وجهة الإسلام ومبرونه ووفائه بحاجات كل عصر

فإن إسرار هاتين الدولتين إلى إدخال وسائل الغرب ، بل قبول التنظيم الأوربي في الإدارة والعمران والفن ، هو مظهر واضح لهذه الوجهة فيه والاستعداد لديه . وهي وإن تسكن من البديهيات ، إلا أن الجود الذي مئى به بعض المسلمين والعصية التي ابتلى بها غيرهم فرموا الإسلام بالعقم والجود والعداء السكل جديد ، يجعلان من هذه الظاهرة البديهية حالة نستوجب التنبيه والدلالة عليها

فما من شك أن نظاماً من الأنظمة كائناً ما كان نوعه وشكله ، لا يُسكتب له التوفيق ما لم يكن له سناد من القوة . وإذا كان النظام شطراً ، فالقوة التي تسنده هي شطره الثاني ، وبدونهما لا بُد للنظام وجود . ومثلها مثل الجسم والروح إذا اجتمعاً كانت الحياة ، وإلا فالموت

ومن هنا حث القرآن المسلمين على إعداد القوة ما استطاعوا إلى إعدادها سبيلاً ، وأن لا يقفوا تفكيرهم على قوة بعينها ، إذ الأسلحة والقوى تتنوع بتنوع الأزمنة وتطور العقل والعلم والصناعات . يدل على ذلك هذه الآية السكريمة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ، وهذا التفكير الذي في كلمة ﴿ قُوَّةٍ ﴾ ، والتفكير في نحو اللغة العربية يفيد استغراق الجنس كما يقول العلماء ، ويفسر لنا

في هذه الآية إرادة التطور في مفهوم القوة باختلاف العصور ، كما توجب الآية تقصى الاستطاعة إلى أبعد مداها لإعداد الوسائل الصناعية والفنية لإنتاج القوة

وذلك ما أدركته العقلية الإسلامية حين رأت شيئاً جديداً وواجهت أمراً واقعاً لا سبيل إلى دفعه إلا بوسائله ، فأنصرفت إلى إعداد جيوش لها كل ما للجيوش الحديثة من صفات الطاعة والنظام وآلات القتال ، وإلى إعداد أساطيل في البحر كالتي يملكها الغرب . ولكن الدول الأوربية كانت أكثر عُدَّة واستعداداً وحيلة ، فالأسطول الفخم الذي بناه « محمد علي » أحرقت هذه الدول غيلة في واقعة « نافارين » ، ثم تألبت عليه ، وحالت بينه وبين اقترحام « الأستانة » لا حباً للدولة العثمانية التي تعدها أعظم أعدائها ، ولكن تقلباً لأظفار الدولة الفتية التي خلفت « نابليون » على « مصر » ، وقوى سلطانها وامتد جنوباً وشمالاً ، حتى عاد أمرها مرهوباً يخشى من ظهوره وتغلبه أن يكون عاملاً جديداً في صد أوربة عن وجهتها ، وقد يستطيع أن يجمع كلمة المسلمين ويقضى على طغيانها . ثم كان من دسائس أوربة بعد وفاة « محمد علي » ما أضعف خلفاءه ، ومهد لاحتلال مصر . وبذلك أزال هذا العامل الخطير والمنافس الجديد ، ورجعت إلى منافستها القديم الذي تظاهرت بحمايته من « محمد علي » ، فلم تترك سبيلاً تنفذ منه للقضاء عليه إلا سلسكته ، حتى أخذت أنفاسه في الحرب العالمية الأولى

ومن هنا زالت من وجه أوربة القوة التي أقضت مضاجعها عصوراً طويلة ، وأثارت جنوبها منذ احتل « محمد الفاتح » القسطنطينية وتغلقت الجيوش العثمانية في البلقان ، إلى أن نطحت جيوش « سليمان القانوني » أسوار « فينة » ، فتداعت الدول الأوربية إلى حلف سارت بتنفيذ خطته رويداً رويداً حتى أدركت غايتها على نحو ما

ونقول : « أدركت غايتها على نحو ما » ؛ لأننا نعتقد أن القوة لا تتمثل

بآلات القتال وحدها ، وأن شهر السلاح دائماً غير ممكن لكل أحد ، وأن وراء هذا النوع من القوة قوى أخرى بها توجد إذا فُقدت ، وهي بيد الإسلام في هذا الشرق ، والوجهات الجديدة ترى التأمل كيف هو يدركها ، وكيف يسعى في توفيرها لنفسه سعياً جاحداً ليس من السهل كبحه بعد اليوم

وأدع الاطالة في هذا الشأن ، لأنقل إلى المظهر الثاني من المظهرين اللذين هيأتهما الأقدار في مطلع العهد الجديد ليقظة الإسلام ، وهو المظهر الديني الروحي وأعني به تلك الحركة الدينية العنيفة التي نشأت في جزيرة العرب ، في أثناء القرن الثامن عشر ، فلفتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب ، وأضطرته أن يُعنى بأمرها

وهي حركة « الوهابيين » التي أحدثتها الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ، وقد عاصرت فتح « نابوليون » لمصر ، وكانت خليفة بأن تدعى « حركة المحمديين » نسبة إلى باعثها وطبيعة دعوته إلى التوحيد الخالص الذي بُعث به رسول الله محمد ابن عبد الله ﷺ ، ولكنها نُسبت إلى أبيه ، وأبوه لا يد له فيها ، لأمر ما أرادته السياسة العثمانية وأشياء حين أشغقت من انتشار سلطانها أشد الإشفاق ، فقاومتها ما وسعها المقاومة ، وبالغت في تشويه غايتها ، وعزتها إلى الابتداع والخروج على الدين ، وجعلت هذا النبز عنواناً على ما تزعمه من ضلالها

وندع التاريخ السيامي لهذه الحركة ، لنفرغ لوجهتها في الإسلام كما تهدي إليها كتب زعيمها ودراسات الباحثين المحايدين من الشرقيين والغربيين . والجمع عليه أن هذه الحركة في الإسلام جديدة وقديمة معاً ، والواقع أنها جديدة بالنسبة إلى المعاصرين ، ولكنها قديمة في حقيقة الأمر ، كذلك يقول « طه حسين » في « الحياة الأدبية في جزيرة العرب » . وهو يوضح ذلك بأنها « ليست إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المظهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هي

الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصاً لله وحده مُلغياً لكل واسطة بين الله والإنس الناس ، وهي إحياء للإسلام العربي وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن على الاختلاط بغير العرب . فقد أنكر « محمد بن عبد الوهاب » على أهل « نجد » ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة . كانوا يعظمون القبور ، ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ، ويعظمون الأشجار والأحجار ، ويرون أن لها من القوة ما ينفع وما يضر . وكانوا قد عادوا في حياتهم إلى حياة العرب الجاهليين ، فماشوا من الغزو والحرب ، ونسوا الزكاة والصلاة ، وأصبح الدين اسماً لا مسمى له . فأراد « محمد بن عبد الوهاب » أن يحمل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قوماً مسلمين حقاً على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرناً »

ثم يقول : « ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب ، وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها ، لكان من المرجو جداً أن يوجد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ، كما وجد ظهور الإسلام كلهم في القرن الأول »

ويمضى على هذا السنن في بيان أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب من نواحي مختلفة ، وفي إيقاظ النفس العربية ، وما وضع أمامها من مثل أعلى أحبه وجاهدت في سبيله بالسيوف والقلم واللسان ، وما أفاد العالم العربي كله من هذه الحركة العقلية الجديدة ، وهو كلام يحسن الرجوع إليه في هذه الرسالة

ويقول « لوثروب ستودارد » الأمريكي : « إن هذه الثورة التي أشعلها « محمد بن عبد الوهاب » فاشتعلت واثقت ، أندلعت ألسنتها إلى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي . . . فتبدت تباشير صريح الإصلاح ، ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الإسلام »

ن  
ج

والتقصي لأطوار الإصلاح في العالم الإسلامي، وعلاقة بعضها ببعض، يرى في هذه الثورة امتداداً لاتفاضات قديمة عرقتها المصوّر الإسلامية في آثار إسلام حزم « في الأندلس، ثم في ثورات أتباع الإمام «أحمد بن حنبل» ببغداد فكانوا يرون ما يتعرض له الإسلام من لوثات أهل البدع والأهواء وما يتهدد المجتمع من سرف المرفين في الشهوات والموبقات، ثم في انتفاضة شيخ الإسلام تقي الدين «أحمد بن تيمية» في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري، وهي أروعها تجديداً وأبعدها أثراً في إصلاح الفكر الإسلامي. ومن كتب ابن تيمية وأتباعه كآبن القيم وآبن قدامة وآبن كثير وغيرهم، آتقبتس «محمد بن عبد الوهاب» جذوته الإصلاحية، فدرس القرآن والسنة دراسة متجردة من أوهام المخرفين وأهل الأهواء، بعثته إلى هذا التجديد الذي وثق فيه توفيقاً لم يكتب لأولئك، لأنهم خذلتهم السياسات، ووجد هو من السياسة حماية له ومن قوتها نصراً لدعوته، فكان له هذا الأثر البعيد الذي يصفه «لوثرروب ستودارد» في عالم الإسلام الحديث، وهو أثر يطول شرحه جداً إذا تقصينا في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وبلاد شمال إفريقية والهند وتركيا وغيرها، والمهم فيه نتيجته من حيث إنه وضع صورة الإسلام الأولى في نصابها القام من الحقيقة، ثم تأثير ذلك في نفسية المسلمين وتوجيهها إلى المثل الأعلى، ثم تأتي من بعد هذا وذلك دلالاته على الحيوية الكامنة في الإسلام وعلى ما يجيش في نفسه من إرادة الحياة الراقية للمسلمين، وإن كان لا يزال يجد من جهلاء المسلمين وبعض حكامهم وساستهم وعلمائهم أيضاً آزوراراً عنه حيناً، وحرباً عليه وذوداً للإصلاح حيناً آخر، لغايات في أنفسهم لم يصورها الزمن ولم يطهرها من لوثاتها الموروثة بعد.

ولما تجسم للدولة العثمانية ولمفكرى الإسلام بعد هذا العهد شيخ «المسألة الشرقية» التي نجمت منذ سنة ١٨٢٥ م، بتفاقم التدخل الأجنبي الأوربي السيامي والاقتصادي في البلاد الإسلامية، وأدركوا جميعاً أن حلول الكارثة العظمى غير

بعيد عنهم، وأن عليهم أن يستنفروا الرأي الإسلامي العام، ظهرت حركة «الجامعة الإسلامية». وكان المسلمون في كل مكان يتلفنون إلى العشور على وسيلة تعينهم على أن يستعيدوا سلطانهم على مصابر أمورهم، فاستجابوا لها بحماسة فائقة، وآلتس الزعماء الوسيلة في الشعور بالوحدة الدينية، وهي أكبر قوة مشتركة بين المسلمين تنظم شغائهم وتجعل منهم قوة مرهوبة بحسب حسابها في الصراع الدولي إذا أحسنوا معها العمل على آتخاذ الوسائل الحديثة المجدية، وكثر أنصار فكرة «الجامعة الإسلامية» من المفكرين، وسعوا لها طوال القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها في عهد السلطان «عبد الحميد الثاني»، وكان أكبر دعاتها في العالم الإسلامي «جمال الدين الأفغاني» و«عبد الرحمن السكواكي» و«محمد عبده»، وأعظم مؤيديها مسلمو الهند الذين شعروا بعد زوال دولتهم على يد «شركة الهند الشرقية البريطانية» بحاجتهم الشديدة إلى التأييد الخارجي أمام خطر الهندوكية والاستعمار البريطاني.

وما من شك في أن حركة «الجامعة الإسلامية» هذه قد نجحت مقدماتها نجاحاً تاماً من حيث استطاعت أن توقف الشعور بالوحدة الإسلامية وتقويه وتقوية لم يسبق لها مثيل منذ عصور، وقدم المسلمون في أنحاء الأرض كل الدلائل الحسية على تأييدها وشدها أزرها. وكان مقدراً أن تنجح بنتائجها، لولا عوامل كثيرة كانت تسكن وراء طبيعتها والاستجابة لها، وأهمها ما كان يعوزها من الملاءمة بين سياستها ووسائلها وبين القوى الجديدة التي كانت تحتاج العالم الإسلامي، ولم تسكن الدولة العثمانية يومئذ قادرة على تحقيق هذه الملاءمة بوجه من الوجوه، فسياستها في الحقيقة كانت قائمة على خداع دول أوربة وتخويفها بشيخ إعلان الجهاد في العالم الإسلامي ولم تعد له وسائله المنجحة، واقتصادياتها كانت أقرب إلى الإفلاس منها إلى الكفاف، وصناعاتها الحربية وغير الحربية غير موفورة، وإدارتها قائمة على الاستبداد والرجعية، كالذي ظهر في معظم حركات السلطان «عبد الحميد

الثاني « وتوجيهاته ، وأدى إلى إسقاطه ، بعد ثلاثين عاماً من حكمه ، استطاعت « اليابان » بمثلها أن تكون أمة ذات حضارة عظيمة ، وقوة هائلة تجاهد بها الدول الكبرى ، فغضب روسية ، وتنافس أوربة وأمريكا ، ولم يحسن « عبد الحميد » فيها من العمل غير سياسة التخويف وحق « مدحت » ونفى الأحرار وتقريب « الصيادي » وتخدير الشعور العام بمخدرات التصوف وبرود تراب القبور بدلا من إيقاظه بمنهات الإصلاح ، وخنقه بدخان التكايا والزوايا بدلا من إحيائه بمنعشات القوة وبأصداء المعامل والمصانع تتجاوب بها آفاق البلاد

وكان شأن الممالك الإسلامية المستقلة الأخرى كإيران والأفغان كشأن الدولة العثمانية في الحكم الاستبدادي المطلق إن لم يكن أفظع وأقبح منه

ولقد هال زعماء الفكر في الإسلام ما لمسوه من مفاسد هذا الاستبداد في المجتمع ، وما أدركوه من انعدام الاتساق بين منازعه وبين روح الإسلام وما يدعون إليه : من الإصلاح ، وبعث حركة « الجامعة الإسلامية » ، وقدروا أن مساعيهم ذاهبة أدراج الرياح حتما مع تغلب الاستبداد وفساد الأوضاع الإدارية والاجتماعية والسياسية ، فاجتمعوا إلى مقاومته ، وفضح السيد « جمال الدين الأفغاني » ، وهو داعية الحركة الأكبر ، تصرفات الطبقات الحاكمة ، ودعا إلى إقامة الحكم الشورى ، وتعالى أصوات المصلحين باستنكار الاستبداد ، ذاهبين إلى أنه أصل لكل فساد ، ناعين على الحكام انحرافهم عن سبيل الإسلام في حكم المسلمين وإدارتهم ، منبهين على عواقب ذلك ، ولم يمنهم ما علموه من قاصده في طبائعهم وتعذر إقلاعهم عنه من تنبيه المسلمين على مضاره ، وإثارتهم إلى تقويض صروحه ، حتى قال في ذلك « السكوا كبي » كلمته الرائعة المعبرة عن قوة يقينه وبُعْدِ مطارح أمله في صدر كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » : « كلات حق وصيحة في واد ، إن ذهبت اليوم مع الرياح فقد تذهب غداً بالأوتاد »

ولقد ذهبت هذه الصيحات فعلا بالأوتاد ، وطوحت بعيد الحميد وضواته ، وعملت أفسكاره وأفسكار بقية المصلحين عملها في توجيه العالم الإسلامي إلى تغيير أنظمة الحكم وإصلاح نفسيات الحاكمين ، كما أفادت دعوتهم إلى « الجامعة الإسلامية » بتأثيرها النفسى في المسلمين ، بما أيقظته فيهم من الشعور القوى بالوحدة الذى ما زال ماثلا في كل ما تلاها من الحركات في البلاد الإسلامية ، وإن أخفقت في بلوغ نتيجةها السياسية لا قدمنا من الأسباب

وهكذا كانت مهمة زعماء الإصلاح الإسلامى ، منذ بداية عهد اليقظة ، تستهدف وجهتين : الهدم والبناء في وقت معاً ، ثم تقيم البناء على أساس مهم جداً لا يتم أمر عظيم كالذى ينفونه بدونه ، وهو : تغيير نفسية الشعوب الإسلامية ، وتحريرها من ركام المنازع الفاسدة والأهواء الدخيلة في الإسلام . وهو أساس أرشد إليه القرآن في قوله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وبه نقل الرسول العرب من حال إلى حال ، وعليه أقام عمود الإسلام

وكان هؤلاء الزعماء يعلمون أن محاولة الإصلاح بالبده بتغيير معالم الحياة الظاهرية وحده إنما هو أخذ بذبذب الإصلاح لا برأسه ، وأن ما يملأ جوانب النفسية الإسلامية من رواسب المفاهيم الباطلة يقف حاجزاً عالياً وسداً منيعاً دون بلوغ كل أمل في تغيير الأوضاع القائمة ما لم يغير ويملاً بالأفكار القوية السليمة النابضة بالحياة كما يوحىها الإسلام الصحيح

لهذا مضى كبار المفكرين في آتجاه خطة الإصلاح الدينى على نحو ما صنع « لوتر » في الغرب ، وأتقل به الشيخ « محمد عبده » وتلاميذه وخلفاؤه في أواخر القرن التاسع عشر إلى ميدان كان أرحب أفقا وأكثر ملاءمة للواقف الجديدة التى دُفع إليها المجتمع الإسلامى دفعا ، وأمكن قدرة على حل المشكلات الحديثة التى أثارها الغرب بتوجيهاته إلى الإلحاد والتشكيك في الإسلام ، أو نشأت من

مغالبة الثقافة الحديثة في أمهات مسائل المعرفة ، خاصة في تركية ومصر والهند  
فبنوا منهاجهم الجديد على أصول راقية كان لها أكبر الأثر في توجيه النهضة  
الحديثة ، وتحرير الإسلام من أغلال الجلود ، وبعث للمسلمين في سبيلهم الطبيعي  
إلى التحرر من كل سلطان عليهم غير سلطان الله  
وكان في هذا المنهج هدم ، وكان فيه بناء .

كان فيه هدم لأصول العوامل القديمة التي عدت على الإسلام بإفساد جوهره  
وتغيير صورته ، ونقض للشبهات التي يحولها دعاة التعطيل الذين رتبهم مدارس  
الاحتلال ويردها الشعوب ونفر من المستشرقين في الدين ورسوله ، والإسلام  
وأهله ، والعرب ومدنيتهم ، والقرآن وإعجازها ، والفصحى والعامية ، والحروف  
العربية والحروف اللاتينية ، إلى آخر هذه السلسلة وفروعها المعروفة

وكان فيه بناء وإحياء للعاطفة الدينية الملهمة يرمي إلى تقوية الروح الإسلامي ،  
وإعداده للصمود في وجه الحملات المغرضة المنظمة على الإسلام ودحرها

وقد تناوت هاتان الوجهتان من الهدم والبناء أمهات قضايا العقيدة  
والشريعة ، والمجتمع والنظام والتربية والأخلاق ، وأصول التفكير ، وقواعد  
العمل في الإسلام . وحفلت دراساتها بالتحليل والتعامل في تبيان وجهات الإسلام ،  
وكشفت عما هو منه وعما هو غريب عنه ومحمول عليه من المقائد والآراء ، كما  
حفلت بالبحث في ماضي الإسلام وحاضره ، وفي هدايته وآرثائه المعنوي وبعثه  
على الارتقاء المادي ، وفي موقفه من حرية الفكر والعقل والعلم والمدنية ، وفي  
مسالكه في السياسة والاقتصاد والحرب والسلام ، وفي معالجته لقضايا الإنسانية  
الكبرى ، وفي الصلة بينه وبين الأديان وإدراكه للعلاقات الدولية وشمول نظراته  
للوحدة الإنسانية وقدرته على النهوض بها والجمع بين الأجناس المختلفة والتسوية بينها  
في المساكنة والعمل وتهئية القرض . وتناوت ذلك كله بأساليب علمية قوية واضحة

القسمات ، ونسب من التفكير المرتب يجمع أحسن ما في القديم والحديث  
هذه الحركة الخطيرة ظهرت في مصر ، فلما لبثت أن جاوزت حدودها إلى الهلال  
الخصيب بل إلى العالم الإسلامي كله ، وكانت مجلة « النار » سفيرها إليه ، حملت  
أفكارها أربعين عاماً إلى بلاد العرب كما حملتها إلى بلاد الترك والهند والصين  
وأرخبيل الملايو ، فأثارت اهتمام المسلمين فيها بالإصلاح الديني وكونه أصلاً يقوم  
عليه كل إصلاح

وترددت أصداؤها في آفاق الأنضول ، كما ترددت في أندونيسيا والهند ، ففي  
أندونيسيا يذكر ك . ك . برج من تأثيرها في الشبان الأندونيسيين الذين يدرسون  
في « الأزهر » أو في « مكة » أن هؤلاء جميعاً رأوا فيها الإسلام على نور جديد ،  
لم يروا فيه مثلاً للتشدد والجود ، ورأوه لا يزال الدين المختار بين الأديان وحامل  
المثل العليا لكل زمان مضى والمثل الجديدة لكل زمان آت ، وهو متجدد  
الشباب ، حامل لواء كل تقدم ، شديد في تسامح ورفق . قال : « واصبح الذين  
أقتبسوا من نور المنار في مصر « منارات » صغرى في أندونيسيا بعد أن عادوا  
إليها »

وفي الهند تمحضت حركة فيها من هذه الحركة تشابه في المناشئ والمنازع  
والوجهات ، متأثرة بها ومستقلة بظروفها الخاصة أيضاً ، وكان ما أشرنا إليه في  
الكلام على « الجامعة الإسلامية » من شعور المسلمين فيها بالحاجة إلى التأييد  
الخارجي أمام خطر الهندوكية والاستعمار البريطاني قد أثارهم في الوقت نفسه  
لإصلاح الداخل ، فظهرت فيها حركات دينية واسعة النطاق تتابعت بين حين  
 وآخر في أثناء القرن التاسع عشر ، وكانت كلها من طراز الحركة الدينية في جزيرة  
العرب التي شعارها « الرجوع إلى القرآن » . وكان تتابع هذه الحركات تمهيداً  
لتفلاق النهضة الهندية بالهضة المصرية والتأثر بها من غير شك . وقد أبعثت النهضة



الهندية الجديدة بعد سنة ١٨٥٧ م ، بدأها السير « سيد أحمد خان » بإنشاء « جامعة عليكرة » و « ندوة العلماء » ، وتبع ذلك قيام جامعات وجمعيات قوية سارت بالإسلام إلى هذه الوجهة ، فتلاقى شرقه بغربه ، وتعاونت أفكار « شبلي النعماني » و « سيد أمير علي » و « محسن الملك » و « صديق خان » و « محمد علي » و السير « محمد إقبال » ، في جناح الإسلام الشرقي مع أفكار « جمال الدين » و « محمد عبده » و « سعد زغلول » و « رشيد رضا » و « المراغي » و « مصطفى عبد الرزاق » و « السكواكبي » و « الجزائري » و « القاسمي » و « الألوسي » و « رفيع العظم » و « شكيب أرسلان » و « آبن باديس » في جناح الإسلام الغربي ، فكان من آثار هذا التعاون هذه البواكير التي تشاهد في العالم الإسلامي

وقد لفت إشراق هذه الحركة الواسعة أنظار الشبان المسلمين المأخوذين بتوجيه أوربة في البلاد الإسلامية كافة - إلى الإسلام ، وكان فيهم آزرورار عنه ، فأجذبته إلى ، فألفوه في صورة أخاذة غير الصورة السكاكية التي رسمت لهم ، ورأوا من حقائقه ما لم يخالوه فيه من قبل ، وبصروا بدساتير وآداب ومثل تعلو فوق مقنول المطاعن والشكوك ، ولم يروا فيه جهوداً كما لقنوا ، وإنما رأوا شباباً متجدداً وحياة نامية ورفقا وتسامحاً وإخاء ومساواة وعدلاً ، فأجذبوا إليه ، وأشربوا حبه ، وهاموا فيه ، وأولوه ما يستحق من اهتمام ورعاية ، وتعلقوا بأهدافه . ورأوا في قاداته من قوة الشخصية وسعة العلم وأصالة الرأي وما صحت ذلك من الحماسة المشبوبة في مناهضة الاحتلال الأجنبي مع صفاء الضمير وخلوص النية ، ما زادهم إعجاباً وإيماناً بالحق الذي يدعون إليه ، ووثقوا أن هذا الذي رسموه من مناهج الإصلاح الديني هو السبيل الموصل إلى المطامح القومية والأمانى الوطنية التي تجيش في صدور المسلمين والعرب ، وتظهر في مناهضتهم للاستعمار ، فأندفعوا فيه ، وأثروا أعلامهم في تبيان محاسن الإسلام ، عادين الأمانى الوطنية جزءاً منه لا تنفك عنه

وبهذا آنداحت دائرة التجديد الإسلامي وامتدت إلى نواحي شتى وآراب مختلفة . وقد كان « جان جاك روسو » و « الثورة الفرنسية » و « الفكر الأوربي » الأمثلة التي يحتذيها هؤلاء ، فأصبحت عقيدة « محمد » ومثل الثورة الإسلامية وسمو الفكر العربي هي المثل التي يلتزمون فيها الإصلاح والبعث . وكانت القيادة التوجيهية إلى علماء « الأزهر » و « الزيتونة » و « القرويين » و « مسجد دهل » ، فأصبح خريجو الجامعات الشرقية والغربية شركاءهم فيها . وكان نشاط العلماء الدينيين مقصوراً على أروقة المدارس والمساجد لا يتمدى منطقتها المقفلة ، فبسط هؤلاء جناحهم على باحات المجتمع كله ، ومدوه إلى الجمعيات والجامع والأندية والمؤتمرات والصحافة والتأليف والترجمة والنشر ، وكتبوا حقائق الإسلام في ضوء العلم الحديث بفهم مستقل ووعي عميق ، وواءموا بين الدين والحياة ، وعرضوا نظريات العدالة الاجتماعية والضمان الجماعي والتأميم والمذاهب الاشتراكية والشيوعية والرسمية على حقائق الإسلام ، وقابلوا بينها ، فأثبتوا قدرة الإسلام على مواجهة المعضلات بنفسه ، ولم ينسوا مع ذلك أن يتأملوا ويطيلوا التأمل في حضارة الغرب على أنها وسيلة لا غاية ينفع من مادياتها بما يمكن للأسلام من الظهور والاستعلاء

كذلك أخذت هذه الحركات بعضها برقاب بعض ، وسلسكت سبيل الإصلاح المترقى على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وهي ماضية إلى غاياتها في قوة وروية لتبلغ نتائجها المؤملة

وقد تجمعت هذه الحركات بعد هذه المراحل في ثلاث وجهات كبرى تتلخص فيها جميع منازع الإسلام ، أنفضجتها الأحداث ، وأبرزها الجهاد الطويل في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من أغلال القرون القديمة وأغلال التقليد للفكر الأوربي ، وتكوين شخصية مستقلة له يحقق بها حريته وحرية أوطانه

هذه الوجهات هي : وحدة الإسلام ، ووحدة الأديان ، والوحدة الانسانية ؛

تأتى بعضها من وراء بعض ، وتكمل الواحدة الأخرى

وقد تثير ملائسات الأحوال الحاضرة شيئاً من الاستغراب عند قوم ، وقد تثير شيئاً من الإنكار عند آخرين فى أمر هذه الوجهات الثلاث فى الإسلام اليوم ومن حق الذين يقفون عند بعض الظواهر دون بعض ، ويهملون التأمل فى سلسلة الحركات الإسلامية منذ قرنين ومناشئها ومناحيها والينابيع التى تروىها وتبعث فيها الحياة ، وما أصابت من توفيق ملحوظ ونجاح غير منزور . . . أقول : من حق هؤلاء جميعاً أن يستغربوا ذلك ، أو أن ينكروه . ولكن الباحثين المتعمقين ممن يرصدون حركات المجتمع الإسلامى وتطوراتهِ ، لا يملكون غير التسليم لهذا الذى أذهب إليه

ويقرر « ماسينيون » أن هناك ظاهرة كثيراً ما يهملها الباحثون ، وهى أن الحركات الإسلامية تستعد فى خفاء وصمت ، وتندلع فجأة دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى ، وبعبارة اصطلاحية أكثر دقة - كما يقول - نستطيع تحليل ما يقع بأن أول الأدوار هو « دور النداء الباطن » الذى يهيب بالضمير الاجتماعى وإن ظل فى حالة هدوء ظاهرى ، أو ظل كما يعبر عنه فى عرف طوائف مختلفة فى حالة قعود أو تقية أو كتمان . وإذا فضج هذا النداء ، تبعه الدور الثانى توتاً ، وهو « دور الدعوة » لا مترداد ما تعطل من حقوق الشريعة ، وسبيل ذلك الجهاد . وهذا هو المفهوم الذى يصدق على جميع الحركات عند مختلف الجماعات وفى مختلف الأوقات

ولا جدال فى أن اليقظة الإسلامية الحديثة قد اجتازت « دور النداء الباطن » ، ودخلت فى « دور الدعوة والتنظيم » فى سلسلة من الحركات قامت فى مختلف أنظار الإسلام من الساحل الأطلسى إلى أرخبيل الملايو ، وسارت قدماً نحو وجهتها لا تبالي ما تأخذها به أوربة من سياسات الدس أو البطش أو الإرهاب ،

فتمت نمواً خطير الشأن فى بعض الجهات ، ودخلت فى طور الأكتال فى بعض آخر ، وخصائصها فى كل جهة متشابهة ، وآثارها متماثلة : لأنها تنزع عن قوس واحدة ، وترمى نحو هدف واحد ، ولا مفر من أن تتلاقى يوماً ما عند نظام موحد لدولة واحدة . وربما لا يعجب ذلك الدوائر السياسية الأوربية ، أو القانطين من ساسة الشرق ، أو بعض ذوى الأغراض من أجراء الاستعمار ونحوم ، ولكن الواقع هو هذا ، لا ما يشتهيه هؤلاء

أما الوجهة إلى الوحدة الإسلامية ، فإنها ترجع بطبيعتها إلى الأصل الأعظم الذى بُنى عليه الإسلام ، وهو عقيدة التوحيد ، وإن شئت قلت وحدة العقيدة . ذلك أن علاقة وحدة العقيدة بوحدة الأمة هى علاقة المسبب بالسبب والنتيجة بالمقدمات ، فعقيدة التوحيد ألهمت العرب فكرة الحرية الشخصية والدينية ، وحررت عقولهم من الوثنيات الموروثة ، وجمعتهم على عقيدة واحدة ترفع النفوس عن الخضوع لسكان من كان إلا للواحد الديان

ووحدة العقيدة الإسلامية كونت وحدة الأمة الإسلامية ، وحققت للإسلام انظموراً والاعتلاء ، وللمسلمين الاستخلاف فى الأرض . وفى تاريخ الصدر الأول ، وتكوين دولة الإسلام ، شواهد ذلك وبيناته

وآفاتراق العقيدة من بعد وما نتج عنه من تبدل حالة المسلمين العقلية والنفسية والأخلاقية ، أفسد مقومات الحياة الإسلامية ، ورجع بالمسلمين من الإسلام إلى الجاهلية جهلاً وانقساماً وجوداً وموتهم ، وأطمع متوثبة الشعوب أن يطغوا عليهم ويستبدوهم فى عقر أوطانهم

وهذا ما جعل جميع الحركات الإسلامية تصرف جهدها إلى هذا الأصل الأعظم وتوطيد بناء المجتمع الحديث عليه ، فعمدت - ولا تزال - إلى خطة ناجحة فى توحيد العقيدة وفى تربيتها ، من أظهر مميزاتنا : تشخيص حقيقة الإسلام

بتطهيره مما ألصقته به الفرق المبتدعة والمذاهب الضالة ، والدعوة إلى الاجتماع على القرآن اجتماعاً تبطل به هذه المذاهب قديمها وحديثها جملة ، وتتوحد العقيدة والأخلاق وجميع نظم الحياة ، وتعلو الأخوة الإسلامية ، وتكون حدود الإسلام هي وطن المسلمين ، إنما المؤمنون إخوة والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، وما وسع السلف الصالح وكان مبعث عزهم وعلوهم ، بسمع المسلمين في كل مكان وزمان ، ويكون مصدره لا استمادة ما أضاعوه من الجهد والسلطان

وقد آتت هذه الدعوة أكلها للطيب ، فزالت تلك الحدة التي اتسم بها أهل المذاهب الإسلامية القدماء ، وضعف الشعور بما كانوا يحسونه من الفوارق من قبل ، وظهرت في المجتمعات الإسلامية طلائع قوية للتسامح والتعاون على الخير في شؤون الحياة ، وخاصة في منازع الوطنية والاستقلال ، مع ما ينفثه الاستعمار من سمومه لتفريق الصفوف على يد أجراءه ووكلائه ، وبدا واضحاً من أثرها في توجيه جمهرة المسلمين في كل مكان نحو التكتل وجعل الإسلام الصحيح أساساً للمجتمع الحديث ، أن حركة الوحدة الإسلامية قد أصبحت من أهم الحركات في العالم الإسلامي اليوم

ولا يضعف من أمرها أفراد مبعثرون هنا وهناك يقفون على طرفيها ولا يندمجون فيها . وهؤلاء هم كَمَطَان من الناس : بعض عناصر الطبقة المترفة ونحوها ممن أسرتهم الشهوات وعبدوا المادة وفترت عزائمهم في دينهم وأهلوا أوامرهم ونواهيهم ، وعناصر أخرى جاهلة كل الجاهل يسمون أنفسهم مسلمين ولكنهم قد حيل بينهم وبين الإسلام الصحيح ولا يخرج دينهم عن مجموعة من الخرافات الساذجة وأباطيل الوثنية . ومثل أولئك وهؤلاء في خضم موج بحمسة مائتي مليون نسمة لا يعتد بهم في الوزن الصحيح للقضايا الكبرى

أما الحركات الوطنية المحلية ، التي تسمى قومية أحياناً ، فهي شعور وطني

محض أرهف من حده الاستعمار السيامي والاقتصادي يتجه إلى إعادة تنظيم الجماعات ويستنفر القوى السكينة لمقاومته والتخلص من جبروته . فهي بسبيل من وجهة الإسلام في هذا الشأن ، وليست عصبية بين الشعوب الإسلامية ، ولا هي كعقيدة الجنس النظرية التي قامت عليها حياة أوربة إلى عهد قريب

والمعروف من تاريخها وخصائصها أنها حركات تتضافر مع الإسلام في وجه الاستعمار ، في كل مكان ، وهي وحدات ، نعم وحدات أحدثها عدوان الدول الأوربية على العالم الإسلامي وأقنطاع كل دولة جزءاً منه تتحكم فيه ، لا أنها هي كذلك أو تريد أن تكون كذلك . وهي كلها تكافح هذه الدول الباغية لتتحرر من سلطانها ، ووجهتها جميعاً إلى الوحدة الكبرى الشاملة من غير شك ولا جدال والمرقبون الأوربيون يعترفون بأن شعور المسلمين بالوحدة سلاح يذافعون به عن أنفسهم ، ولن يذبذبه مستخفين به ، لأنه يسبق القوة على هذه الوحدات المتفرقة ، ويلاحظون أن النزعات المنتشرة تسير بقوة في سبيل الاحتفاظ بأساس إسلامي للقوميات الجديدة ، وأن السعى لتقويتها هو من أهم الحركات في العالم الإسلامي اليوم

و يقرر « جب » أن ثورة المسلمين على مبادئ الحضارة الأوربية التي تعارض الأخلاق ستدفع المثقفين منهم حتماً إلى أن يزدادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق السامية ، وأن يصروا على أصل الإخاء الإنساني الذي هو أساس الأخلاق الاجتماعية في الإسلام

وان النزعة الإسلامية آخذة في القوة على أسس أخلاقية ، ولا سيما مع تزايد النفوذ السيامي للطبقة الوسطى التي أثرت فيها على الدوام تعاليم الإسلام الخلقية . وكما زادت روح الديمقراطية في القوميات المقبلة ، زاد سلطان أصول الإسلام على العلاقات السياسية

ويقول : « إن عاطفة الوحدة آتتُك دِلالة محسوسة على وجودها بطريقة مطردة رائعة ، فلا تمر حادثة تمس حياة العالم الإسلامي من غير تعاقب حامسي حاد في صحافة تذيع في نصف آسية وإفريقية . ونحن تأخذ هذه الحوادث شكلا خطيراً سواء في مراکش أو ليبيا أو فلسطين أو الهند أو أندونيسيا تأتي قرارات الاحتجاج من كل فج وكلها متشابهة في اللهجة بل في العبارة . وليس عهدنا بعيداً بالجزء الأكبر من العالم الإسلامي حينما كان يخيّل لمن يراه أنه في سبات عميق ، حتى حسبه بعضنا قد فقد الحياة . فأما اليوم فإن حادثة صغيرة مثل قتل الشهيد عمر المختار تهز ما بين مراکش وجاوة ، وكأنها صدمة كهربائية ، وتولد تياراً من السخط للمتهب . حقاً ، إن ذلك الشعور المتولد يحمّد مرعاً ، ولكن تراكم أثر تلك الصدمات سيجعل رد الفعل أكثر قوة ، وسيزيد العالم الإسلامي شعوراً بوجوده »

وأقول : إن هذا الشعور قد بلغ من نفوس الشعوب الإسلامية غايته ، فهم يشعرون أنه ليست هنالك شعوب إسلامية ، ولكن أمة إسلامية ، وطما حدود الإسلام

وبهذا الشعور بدأت الحكومات الإسلامية تحمل ما عني أن يحدث بينها من وجوه الخلاف . ولا نحسب أن أمة من هذه الأمم الأوروبية تنازعت وأمة أخرى أمراً بينهما ، ثم استطاعت أن تنزل عن أحقادها وتزاتها ، أو تحسم نزاعها بزيارة يقوم بها ملكها لتلك الدولة أو يقوم بها وفد أهلي لا صبغة رسمية له ، كالذي يستطيعه ملوك المسلمين ووفودهم في هذا العصر حين يقع بين دول الإسلام الحاضرة شيء من الخلاف كما يقع في العادة بين الأخ وأخيه . ولست أذكر ناسياً حين أذكر كيف ضرب الملك « فيصل » المثل بنزوله عن تراتيه عند الملك « عبد العزيز السعود » فذهب إليه بصاحفه وبشاوره فيما فيه خير العرب والمسلمين ، وكيف زار إمبراطور إيران لحسم بزيارته النزاع الذي نشب بين العراق وحكومته

على بعض الحدود ، أو كيف أستطاع وفد أهلي أن يحسم النزاع بين اليمن والمملكة العربية السعودية فيرجع الجيش السعودي عن « صنعاء » بعد ما طرق أبوابها بتذكيره المتخاصمين بالأخوة الإسلامية وحقوقها في رقاب المسلمين

وهذه الوجهة إلى الوحدة الإسلامية التي تظهر اليوم عند المسلمين هذا الظهور القوي من إدراكهم التام لحقيقة الموقف الذي وُضِعوا فيه ، تصحبها في المجتمع الإسلامي في الوقت نفسه ظاهرة رائعة من وجهة الإسلام إلى توثيق الصلة بينه وبين الأديان الأخرى . وهي وجهة قديمة معروفة من أصول الشريعة وسيرة رسول الإسلام والتاريخ الإسلامي ، يحسن بنا أن نقف عندها وقفة قصيرة ، ثم نعرض لما عراها من بعد ، ثم كيف عادت إلى الظهور في هذا العصر ، لتكون مناشئها بيئة ، وأثلا يحسبها المتأثرون بالسياسات التي غرستها يد أوربة في الشرق « مفارقة » لا تنسجم مع الاندفاع إلى الوحدة الإسلامية

فن المعلوم بالضرورة من الدين أن الإسلام إنما هو دعوة إلى الإيمان بالله الواحد الخالق ، ورسالة مكلفة للشرائع السابقة ومعبدة للحنيفية الفطرية التي تستند إلى وحدة الله ، وتترتب عليها وحدة خلقه . يقول القرآن : ﴿ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ السِّكِّتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ السِّكِّتَابِ وَمَهِيْمًا عَلَيْهِ ﴾ ، ويقول : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا رَضَىٰ بِهِ نُوْحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ . ولم يختلف الرسول ﷺ ، مع أهل الكتاب إلا حيث كانت تنزيه الخلق موضع شك ، وقد كان كثير التسامح معهم رفيع الأدب في مجادلتهم ، يقول القرآن : ﴿ وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، ويقول في النصاري : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بَأَن مِّنْهُمْ قِسِيْسِينَ وَرَهْبَانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، ويقول في الملل الكتابية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وعمل صالحاً، فلمهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون». وبالإيمان بالله وحده لا شريك له تتساوى عنده القبائل والشعوب والأديان والرسل، لقوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون﴾

ومسيرة رسول الإسلام مع أهل الأديان جميعاً، سيرة كآثارها رفقا وإحسان وعدل، لأن دينه لا ينظر إلى غيره من الأديان إلا هذه النظرة الجامعة. وقد وضع أساساً صالحاً عادلاً يحدد موقفه من أهلها جميعاً، فقال: ﴿فأستقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾، فما حاد عن هذا الأساس. وكان من بينات عطفه أن أصدر إلى النصارى، فتنزج من قبطية أسمها «مارية» كانت أم المؤمنين وأم ولده «إبراهيم»، كما تزوج من «صفية» وهي يهودية، ولم تفته فرصة دون أن يوصى بأهل الكتاب خيراً

وفتح المسلمون البلاد التي كانوا يقطنونها فما أطاحوا بحقوق أحد منهم، وكان من أصول السياسة الإسلامية المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم حتى في بيت مال المسلمين، فهو ليس بمقصود على معاونة المسلم وحده، بل يُشرك فيه غير المسلم بلا قيد ولا شرط. وفي قصاص «عمر بن الخطاب» من أبنة لأجل حق امرأة مسيحية قبطية، أكبر الشواهد على العدالة الإسلامية، وفي قوله: «متى أستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ كل مقاصد الإسلام من الحرية والإخاء والمساواة

ويعترف السير «توماس آرنولد» في كتابه «انتشار الإسلام» بأن «الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم، وأن جميع المذاهب المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء، بل

هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض، ويكفلون الحرية الدينية للجميع»، ويقول: «تحت نظام من الأمن يكفل حرية الحياة والمال والعتيدة الدينية، تمتع المسيحيون - ولا سيما في المدن - بثروات ونجاح كبير في عصور الإسلام الأولى، فكان منهم أرباب النفوذ الواسع في قصور الخلفاء»

ومن المؤسف حقاً أن قابلت أوربة هذه السماحة بالسماحة، وحملت سياساتها «الميكانيكية» في عهودها الطوال منذ العصور القديمة إلى هذا العصر على ارتكاب موبقات وفظائع ومذابح لا حصر لها لم تعرفها وحوش الغاب، وعبدت بوحدة الشرق باسم حماية الامتيازات وحقوق الأقليات، وأجرت من دماء المسلمين وغير المسلمين أنهاراً، حتى أصحرت نياتها للجميع عن الاستعباد والاستعمار، فأنجحت النقاشات عن الأبصار، وأدركت الأقليات من الحقيقة ما أدركته الأكترية

لذلك كان على الإسلام في غمرة صراعه للاستعمار أن يصرح عن محضه، وبكشف عن وجهته ونيته غير متملق ولا مداهن. فوضع أمام الأعين المبصرة والقلوب الواعية كتابه الصادق، وتاريخه الناطق، وشعوره السليم. فصدقته غير مترددة ولا متشككة تصديقاً لا يتطرق الشك إلى عاطفته الخالصة التزبنة، وأجابته على تسامحه وإخلاصه فأبدت قاعدة اعتراف الدولة بالإسلام ديناً رسمياً في مصر وسورية والعراق، وظهرت رايات المتظاهرين في الثورة المصرية سنة ١٩١٩، وقد نسجت خيوطها أهلةً وصلباناً، وهال «مدام جهان دي فرای Madame d'Ivray» أن شهدت قسيسين أقباطاً يعظون في المساجد، وعلماء من شيوخ المسلمين يعظون في الكنائس طلبة من السوريين والموارنة والمسلمين، وسيدات مصربات وتركيات جميعاً على وئام وثيق واتحاد مكين في سبيل القضية الوطنية، وقالت: إنها قد أصبحت تشهد من ذلك العجائب والغرائب في هذه الديار

وقوى هذا التعاون في أوطان الهلال الخصيب ، وخاصة في فلسطين ، حيث ظهرت الصهيونية تريد الاستيلاء على المسلمين والمسيحيين الشرقيين معاً ، ويلاحظ « ج . كينغ » أن تجاوب المشاعر بين المسلمين والمسيحيين والشرقيين كلاً من الشعور الإسلامي والمسيحي يؤثر في تطور الآخر تأثيراً خفياً ، ولكنه قوى . وقد دهش « الأب ف . ت . بنارت » للعلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين في العراق ، وأعجبه غاية الإعجاب ، وهو يتحدث عن المنشآت الإسلامية الحديثة التي تقص الصحف أمرها ، أن رأى المسلمين اليوم في العراق يحذون حذو المصريين ويؤسسون بمساعي بعض العلماء هذه الجمعيات الإسلامية في حماسة من غير أن تمس المسيحيين بكلمة جفاء واحدة

ونحن نرى في الجانب المسيحي الأدباء المسيحيين العرب يمازجون بين عواطف الإسلام والعروبة ، ويهذبون بأدبهم المشاعر ، ويعملون على تقريب الوجهات كما يعمل عليها المسلمون ، ولهم الآيات البينات في التقنى بمحاسن الحضارة الإسلامية ، ومنهم من فنى في حب محمد رسول الإسلام ، مثل « مارون عبود » الذي أبت عرويته إلا أن يتيمن فيسمى ابنه باسم بابنها الأول ، و « لبيب الرياشي » الذي وصف فضائل محمد بما لم ينهض بمثله كثير من المسلمين ، وأمثال شبلى ملاح والياس فاعور ونجيب نصار وجورج سلسى وغيرهم ، وكلهم أشاد في شعره ونثره بمحمد ، وأستعذب لغة القرآن

ولست أدري ماذا بقى بين هذه النفسية المنصفة للصافية وبين الإسلام ؟ ومن المسلمين من فتنهم أوربة عن دينهم ، فما آتوا فروضه وأوامره ، ولا ظفر منهم محمد ولا العروبة ولا حضارة الإسلام بكلمة لإطراء مع تمييزهم على نظراتهم بالبيان كذلك التقى الإسلام بالمسيحية في هذا العصر ، وأعادت مواقف أحدهما من الآخر إلى الأذهان مواقف العرب المسيحيين في عهد الفتوحات الأولى ، وقنالم

في الصفوف الإسلامية انتصاراً لعروبتهم في مثل « واقعة الجسر » و « واقعة البويب » ، وعاد الطابع القديم الذي طبع به الإسلام الشعوب على التعاطف والتراحم والموادات كأحسن ما تطعم به الآمال

ونحن نعتقد أن هذه اللطائف من تصفية العقول وتزكية الضمائر والرغبة الصادقة في آتقاء وجهات النظر عند أصول الأديان جميعاً ، وهى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ستفعل الناس حتماً - كما از دادوا وعياً وإدراكاً لأثر هذا الأصل في الحياة البشرية - إلى الأفق الرحب الذى يليق بالإنسانية أن تنتقل بنفطرتها إليه ، ألا وهو الإخاء الإنسانى العام

فلا مرية في أن بنیان المدنية الإنسانية الحق إنما يقوم على هذين العمودين : الإيمان بالله ، والأخوة الإنسانية الجامعة في عالم واحد

والمأمل في الإسلام ، يحده حريصاً عليهما أشد الحرص . فهو قد دعا إلى التوحيد الخالص ، وبالع في الدعوة إليه والتوكيد عليه كما بالغ في احترام رسالات الله التي دعت الإنسانية إلى هذا التوحيد ، ليكون الإيمان بالله واحداً في حقيقةته ومظهره ، ثم عطف على الروابط الإنسانية فركزها في أساس واحد ، هو بديهي جداً وغامض جداً في وقت واحد ، هو غامض لأن الناس أبتعدوا عنه كثيراً ، ولأنه يغيب عن الأذهان في غمرة هذا الصراع والتكالب بنوازع الجهل والعصبية ، وهو بديهي لأنه قريب من نفس كل إنسان لو فكر الإنسان في نفسه وانساح من نواذحه الشريرة لحظة واحدة ، وهو بديهي فالناس جميعاً من نفس واحدة ، وأنهم لذلك أسرة متشابكة الأجزاء متكافلة الأعضاء وليس بينهم إلا قرابة تحترم ، ورحم توصل . . . ولإبقاء هذا الأصل سليماً أيضاً أمر الإسلام بآتقاء الله فيه بالآحترام والتواصل والتعاون والمحبة ، لينتهوا جميعاً إلى عالم واحد لا يستعلى فيه قوى على ضعيف كما نشؤوا من نفس واحدة ، وليعيشوا سعداء بالرحمة والحنان

والحب ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾

على هذا النحو أو على هذا الأساس صاغ الإسلام مدنيته ، وحقق جمعَ الأجناس وتغامها وتعاونها . وله في ذلك ماض مجيد مشهور . ويعترف رجال الدراسات الإسلامية من الأوروبيين بأنه « لا توجد مدنية أخرى سُجل لها من النجاح في أن تجمع كثيراً من أجناس الإنسان المختلفة مع التسوية بينهم في المسكنة والعمل ونهضة الفرص - كما سجل للإسلام »

ويلاحظون « أن الجماعات الإسلامية العظيمة في إفريقية والهند واندونيسيا ، والجماعات الصغيرة في الصين ، والجماعات الصغرى في اليابان : كلها تبين أن الإسلام لا تزال له القوة على أن يتألف العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والقدرة ، ويرون أنه إذا لم يكن بد من أن يحل التعاون محل الشقاق بين المجتمعات العظيمة في الشرق والغرب ، فإن وساطة الإسلام شرط لا بد منه ؛ لأن في يده إلى حد كبير حلّ المعضلة التي تواجه أوربة في علاقاتها مع الشرق ، وإذا أخذنا زاد الأمل زيادة لا حد لها في بلوغ نتيجة سليمة »

على هذا النحو صاغ الإسلام المدنية الإنسانية ، وعلى هذا النحو يعنى مفكره في هذا العصر بإظهار وجهته الكبرى إليها ، لا يألون في عرض حقائقها وبيان مناهجها والموازنة بين الأصول التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية والأصول التي تقوم عليها حضارة الغرب ، لينقلوها من التراث العقلي المجرد إلى الميدان العلمي الواقعي ، ولينقذوا هذه الإنسانية المعذبة التي تضطرب أحشاؤها بالرعب ، وتضطرم قلوبها بالأحقاد الآكدة ، ويُبدد بعضها بعض أظلم ما يسمو إليه الخيال المنح من صور أدوات التدمير والإفناء ، حتى أصبح السلام حلاً لا سبيل إلى تحقيقه ، وأمنية معسولة واسكنها برق خُلب وصراب كدوب

والواقع أن الأساس الذي تقوم عليه حضارة الغرب لا يمكن أن يُسلم إلى غير هذه النتائج ، وستظل الإنسانية تعاني أزماتها الحاضرة مادام هذا الأساس هو الذي يتصرف بالعقول والنفوس ، ويخلق فيها الظلم القاتل إلى المال ، ويهيج التنافس والنضال للحصول عليه ، مسقطاً للمعاني الإنسانية السامية والمثل الخلقية السكرية ، مثل الإيثار والمحبة والأخوة ، فلا يكاد يمسكها ، ولا تسكاد تعلق به

ومن هنا كان في أوربة هذا التناحر الذي لم تعرف الإنسانية في عصورها الطوال أوحش ولا أضرى ولا أفك منه ، حتى عمّ بلاؤه الأرض كلها ، لم يسلم منه القابعون في قلل هملاب ولا المنعزلون في سهوب إفريقية

يصف الأستاذ « جود » الفيلسوف البريطاني المعاصر في كتاب له تطيره عما أنزلت إليه أوربة ، فيقول : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقول الأطفال والوحوش » ، ويقول : « إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة وطفولتنا الاجتماعية الخجلة ، نواجهه عند كل منعطف ومنعرج ، نحن نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ، ونرسل الصور بالبرق ، ونصب اللاسلكي في بيوتنا ، ونسمع في سيلان دقات (Big Ben) الساعة العظمى تضرب في لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتها ، والأطفال يتحدثون على الاسلاك البرقية ، وآلات الكتابة صامتة ، وتملأ الاسنان من غير إجماع ، والزروع تنمى بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (X-rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تسلك وتنفى ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والنواصات تذهب إلى القطب الشمالي ، والطائرات تطير إلى القطب الجنوبي . ومع ذلك كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين ، ونجرح منهم تسعين ألفاً سنوياً » . قال : وقال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لإطرائي لمجائب حضارتنا - وكان بعض سواق

السيارات قد نجح في قطع ثلاثمائة ميل أو أربعمائة في ساعة على رمال Pendine ،  
وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في عشرين أو خمسين ساعة (لا أذكر) -  
« نعم ، إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطيور ، وتسبحوا في الماء كالسمك ،  
ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض ! »

والإسلام حين ينظر إلى الغرب فيجد فيه هذا التفاوت العظيم بين أرتقائه  
المادى هذا الآرتقاء الذى لا مطمح وراءه ، وبين انحطاطه فى الجانب الروحى هذا  
الانحطاط الذى جعله يستعمل قواه بعقول الأطفال والوحوش كما يقول الفلاسوف  
البريطانى ، ولم يعلمه كيف يمشى على الأرض كما يقول الفلاسوف الهندى . . . يأمرى  
غاية الأمر على المصير الذى يوجه الغرب العالم كله إليه ، ويتوجع كل التوجع  
أن يراه وهو يقطع أرحامه كما يقطع رحم الإنسانية فى كل مكان ، ولا تهالى دوله  
السكبرى - فى سبيل نفسها وحدها - أن تنفق فتطرد العرب الفلسطينين الأبرار  
من موطن أجدادهم وآبائهم باليهود الأشرار الذين يمدونها بالمال إعانة لها على  
إنتاج آلات التدمير والحرب ، أو أن تزيل أمة من الوجود بقذيفة واحدة ينطلق  
منها مايون عزرائيل يتخطفون فى لحظة أرواح ملايين من الشيوخ العجاف  
والأوانس اللطاف والأطفال الملائكة الأبرار ، فلا تبقى على بناء مشيد ولا زرع  
قائم ولا حيوان من هذا الحيوان الأعجم الذى يؤسس الغربيون جمعيات الرفق به  
من أذى الإنسان !

والإسلام بين توجعه وأساه ، يتحرك ويتحفز ، وبه من الغرب أغلال ،  
ليحطمها ، ولكن لا تحطيم من يريد أن يثار وينتقم ، لأن العقو عنده أساس  
معاملاته ، وهو أقرب للتموى ، بل تحطيم من يغار على كرامته أن تذال ، وعزته  
أن تذلل ، ويقظته أن تحذر وتنوّم وتبعد عن واقع الحياة ، وقدرته أن تكبّل  
وتحد بنوازع الأثرة والظفان . . . ليعود مرة ثانية ، فيصوغ إرادته بنشر روح

الإخوة الإنسانية فى عالم واحد ، دعامة نظام روحى يكون أساساً للنظام التهذيبى  
وأساساً لقواعد الخلق والعمل ، لا يضحى فيه بشيء من أصول الأخلاق فى سبيل  
التنظيم الاقتصادى ومعاملة الأفراد والجماعات

ويومئذ نسخر هذه المصنوعات الجداد للخير وحده وللشركه ، بعقول الحكماء  
والإنسانين لا بعقول الأطفال والوحوش ، وتتعلم أوربة حين تطير فى السماء كيف  
تمشى على الأرض ، ثم تسير ويسير ركب الإنسانية إلى سعادته المنشودة فى وثام ،  
وينعم الشرق والغرب جميعاً بنعمة السلام ، ويكون الدين كله لله



المطبعة السليمانية